مذهب أهل الحديث (4)

والفقه في الجملة مدرستان:

مدرسة أهل الحجاز وهي التي يغلب عليها الأثر والدليل والنقل.

ومدرسة أهل الرأي؛ ومنهم من يقول ومدرسة أهل العراق وأن أردت ان تسبر وأن تفحص وأن تدقق تقول مدرسة المدينة ومدرسة الكوفة؛يعني المراد بأهل الحجاز المدينة والمراد بأهل العراق الكوفة؛ لأن علياً نزلها ومكث في آخر حياته في آخر خمس سنوات؛ وظهر منها فقه غزير.

وشاع وذاع عند كثير من الطلبة أنَّ أهل الكوفة يعملون بالرأي ولا يأخذون بالحديث وهذا ليس بدقيق! فسمة المدرستين في العصر الأول الأنوّر في عصر الصحابة والتابعين أنهم ما كانوا يتركوا الدليل بقول أحد أو لرأي أو لقياس.

فالتعصب والتمذهب ساقط من العصور الأولى، لأنّ الإلزام لم يكن معروفاً عندهم إلا بنصوص الوحيّ.

وهكذا كان الائمة الأربعة ما ألزموا أحداً بأنْ يأخذ قولاً افترعوه واجتهدوا فيه من غير نص من الوحي كتاباً وسنّة.

ولكن في العصور المتأخرة وبحكم ما استجدَّ من أشياء وبحكم البيئة ؛ امتازت مدرسة الحجاز عن مدرسة الكوفة –مدرسة العراق.

العراق والحجاز ولا سيما لما اتسعت رقعة الإسلام في عهد عمر فرمى بالإسلام –رضي الله تعالى عنه– رمية واسعة، فكانت عندهم عادات وتقاليد ومسائل تَفرُق كثيراً عن أهل المدينة فاضطَّر الفقهاء للإجابة على هؤلاء أن يتكلموا بآرائهم، وخالط الحنفيَّة بعض المعتزلة، فكان جلُّ المعتزلة حنفية، وأصول المعتزلة تقديم العقل على النقل؛ فضعف الاستدلال بالنقل في هذه المدرسة.

ولما أمر عمر بن عبدالعزيز أبا بكر بن حزم بأن يجمع أحاديث النَّبي -صلى الله عليه وسلم- ،وأمر بتدوين السنَّة بدأت خصيصة لأهل الحديث، وبدأوا يمتازون بحضور وتصانيف ووجود، ومن ههنا بدأ الافتراق بين أهل الحديث وأهل الفقه؛ مع القول أنَّ أهل الفقه وعلى رأسهم أصحاب المذاهب هم أهل حديث.

ولذا في عصور التابعين وتابعي التابعين وتابعيهم كان ذكر شهير لأهل الحديث ،يقول الإمام الشَعبي:" لو استقبلت من أمري ما استدبرت ؛ما رويت إلا ما أجمع عليه أهل الحديث" أهل الحديث موجودين زمن الشعبي؛ والشعبي أدرك خمسمئة من الصحابة وسمع من ست وثمَّانين منهم.